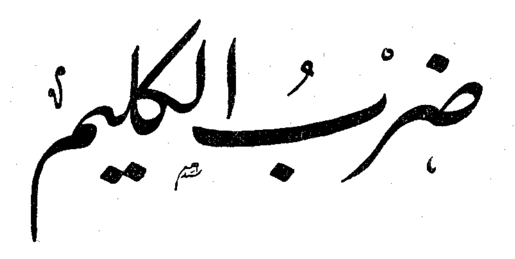
جماعة الأزهر للنشر والتأليف



إعلان الحرب على العصر الحاضر

نظمه باللغة الأردوية
شاعر الاسلام الفيلسوف
محمد إقبال

وترجمه
الدكتور عبد الوهاب عزام بك
سفير مصر لدى الباكستان

القاهرة
مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية
٤٠ شارع نوبار باشا (سابقا شارع الدواوين)
١٩٥٢

إلى

جلالة الفاروق

رياح العُرب فى البيداء سيرى ومَوجَ النيـل فى شغفٍ أثيرى
عن الفاروق[1] للفاروق أدِّى بلاغَ الدين والمُلكِ الـكبيرِ

* * *

بفطرتنا السـيادةُ والـكرامه وفوق جَبيننـا سَـطرُ الإمامه
بقلبك فانظرنْ دُنيـا جلاها من الفاروق[2] قلبٌ ذو شهامه

* * *

فمن يكشِفْ له السرَّ اليقينُ يُوَحِّدْ ما تُثنِّيـه العيونُ
كقِنديلين قد مَزَجا ضـياءً تألفَ بينَنـا مُلكٌ ودينُ

* * *

إذا الإسلامُ قد صدق البَـلاءَ غُبـار طريقـه يَسمو سمـاءَ
شرارَ الشوقِ فاحفظ إن تَجِدْه فإنك مُطلِعٌ منـه ذُكاءَ

(*) فى ديوان « أرمغان حجاز » لاقبال رباعيات عنوانها (الفاروق) ، كتبها الشاعر حينما جلس جلالة الفاروق على العرش . وهذه ترجمتها من الفارسية .

(١و٢) الفاروق الأول عمر رضى الله عنه .



محمد اقبال



الدكتور عبد الوهاب عزام بك

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

— ١ —

نسألك اللهم الإلهام والتوفيق . وبعد فقد يسر الله تعالى منذ عشرة أشهر ترجمة ديوان بيام مشرق الذى نظمه بالفارسية الشاعر الفيلسوف محمد إقبال رحمه الله . وتم طبع الديوان بالعربية فى مدينة كراجى حين الذكرى الثالثة عشرة لوفاة الشاعر فى شهر نيسان (ابريل) سنة ١٩٥١

وقدمت جماعة إقبال الديوان العربى إلى حاكم باكستان العام فى احتفال رسمى حاشد .

وكانت ترجمة أحد دواوين إقبال إلى العربية تحقيق أمنية كبيرة للشاعر رحمه الله ، واستجابة لأمل قديم فى نفسى ، وبلوغ غاية حاولت المسير إليها مرات فعوقتنى الشواغل .

وكان لهذه الترجمة أثر بليغ فى نفوس علماء باكستان وأدبائها وساستها ، وقبول حسن عند قراء العربية .

— ٢ —

دعانى هذا الظفر إلى الاستقامة على الطريق لأترجم دواوين أخرى للشاعر العظيم ، وهوّن على المضىّ فيما بدأت واحتمال المشقة فيما تصدّيْتُ

له ، ودعا كثيراً ممن يعرفني من أهل باكستان إلى أن يتوجهوا إلى ناظرين ترجمة أخرى .

وذكرت الديوان الذى هممت بترجمته من قبل. وهو «جاويد نامه» القصة التى بيّن فيها إقبال كثيراً من أحوال المسلمين وكثيراً من آرائه وفلسفته أثناء رحلة فى الكواكب دليله فيها الشاعر الصوفى الكبير جلال الدين الرومى صاحب المثنوى .

وما ترددت فى إيثار جاويد نامه بالترجمة بعد « بيام مشرق »

ولكن صديقاً أديباً من محبى إقبال المعجبين به ، العارفين بشعره وفلسفته وسيرته ، ومن الذين خالطوه كثيراً فى حياته ، ولم يدخروا جُهداً فى بيان دعوته والتعريف به — اقترح على ترجمة ديوان آخر.

قال الصديق الأستاذ أحمد برويز : أرى أن تترجم « ضرب كليم » لأنه آخر ما نشر المؤلف وآخر ما نظم إلا ديوان أرمغان حجاز الذى نشر بعد وفاته . وهو، إلى هذا ، تتجلى فيه فلسفة إقبال القوية ، ودعوته الصريحة ، فى أمور معيّنة جعلها فى الديوان فصولا. ثم جاويدنامه منظومة واحدة طويلة عميقة يحتاج قارئها إلى زاد كثير من الفلسفة والتاريخ . ولا يتيسر إدراك مراميها إلا لقارئ أوتى حظاً موفوراً من العلم والأدب . ومترجمها لا يبلغ غايته حتى ينتهى منها ؛ على حين أن مترجم ضرب كليم ينهى عملا بترجمة كل قطعة فيه ، ويبلغ غاية كلما انتهى من فصل . وهو بعد هذا وذاك ، أقل أبياتاً ، وأيسر كلفة .

وما زال الصديق يوالى الحجج ، حتى وافقته على أن أقدم « ضرب كليم » على « جاويد نامه » مؤخراً هذه القصة مرة أخرى. والله المستعان.

رأينا أن نجتمع على قراءة الكتاب ، واستقصاء معانيه ، والتعمق فى عباراته وإشاراته ، قبل بدء الترجمة .

وتواعدنا أن نجتمع فى دار السفارة المصرية من مدينة كراجى ، ونوالى الاجتماع كل أسبوع مرتين أو ثلاثاً حتى نفرغ من الديوان .

وحرصنا على ألا نتفرق عن مجلس حتى نتفق على موعد المجلس التالى ، خشية أن تصرفنا الأشغال عن هذه المجالس . وكانت أفئدتنا تهفو إليها ، وذكراها تحبب إلينا أن نسارع إليها .

كنت أنا والأستاذ أحمد برويز والأستاذ سيد عبد الواحد مدير الغابات فى باكستان ، وهو أحد المؤلفين فى سيرة إقبال وفلسفته ، أركان هذا المجلس . وكان يختلف الينا إخوان من محبى إقبال منهم من يشهد مجالس متتابعة ، ومنهم من يشهد جلسة أو جلستين ثم يغبّ أو ينقطع . فكانت الحلقة تضيق وتتسع .

وكنا بين الحين والحين ندعو إلى وليمة نستكثر فيها من أعضاء جماعة إقبال فى كراجى ، وندعو إليها رئيسها الفاضل نذير أحمد وزير الصناعة حينئذ .

وكان الأخ أحمد برويز شيخ المجلس ، يتولى القراءة والشرح ، ويفيض فى الابانة عن آراء إقبال ، ويستطرد إلى كلام فى الشعر أو الفلسفة ، وإلى وصل كلام إقبال بالقرآن الكريم .

وقد سميت المجلس « مجلس إقبال » أو « مجلس الإقبال » وسميت

حاضريه « دراويش إقبال » أو « قلندران إقبال » وسميت أحمد برويز شيخ الدراويش أو « شيخ قلندران إقبال » .

* * *

شرعنا فى القراءة عقب عيد الفطر من سنة ١٣٧٠ هـ . فلما فرغنا كتبت فى بياض بالصفحة الأخيرة من الكتاب :

« تمت القراءة عشاء يوم السبت خامس المحرم سنة ١٣٧١ هـ (٦ أكتوبر سنة ١٩٥١ م) » .

« والحمد لله أولا وآخراً ورحم الله إقبالا » .

فقد قرأنا الكتاب فى ثلاثة أشهر . ولا جرم أننا شغلنا عن المجلس أحياناً فلم نتابع مجالسنا على ما قدّرنا .

وشرعت فى الترجمة ليلة الاثنين حادى عشر شوال سنة ١٣٧٠ هـ (١٦ تموز ١٩٥١ م) .

فلما فرغت منها كتبت تحت السطور التى أرخت فيها إتمام القراءة :

« يسر الله الفراغ من الترجمة عشاء ليلة الأحد ١٨ صفر الخير سنة ١٣٧١ هـ (٨ تشرين الثانى ١٩٥٢ م) » .

فقد شغلتنى الترجمة زهاء أربعة أشهر وفرغت منها بعد شهر ونصف من إتمام القراءة .

— ٤ —

آثرت أن أطبع الديوان فى مصر لأبلغ فيه ما فاتنى فى بيام مشرق من وضوح الحروف واستكمال الشكل . ولبثت أرتقب سفرى إلى الوطن المبارك . فلما بلغته فى السادس من كانون الأول (ديسمبر) شرعت أبيض الديوان وأعده للطبع ، بين شواغل وأسفار متوالية وتولى

رقمه[1] ولدنا الفاضل محمود جعفر الجبالى المفتش بمصلحة الضرائب .

ورغبت إلىّ « جماعة الأزهر للنشر والتأليف » أن يكون الديوان من مطبوعاتها فسلمته إليها شاكراً . ووددت أن ينجز طبعه وأنا فى مصر لأنظر فى تصحيحه ، ووضع كلمة مكان أخرى أثناء التصحيح . ولكن لم يكن بد من العودة إلى باكستان قبل طبع الكتاب .

فتولى الاشراف على الطبع وإرسال النماذج إلىّ بالبريد الجوى ، الأستاذ محمود الجبالى أيضاً جزاه الله خير الجزاء .

* * *

إن من سعادة الجَدّ أن أحقق أمنية الشاعر الفيلسوف العظيم ، وأزيد فى ثراء لغة القرآن بترجمة بعض دواوين إقبال إلى العربية .

ويزيدنى غبطة ، ويشرح صدرى ، أن أنشر ديوان ضرب كليم حين الذكرى الرابعة عشرة لوفاة شاعر الاسلام النابغة ، كما امتلأت نفسى سروراً ، وقلبى نوراً ، حينما نشرت بيام مشرق فى الذكرى الثالثة عشرة لوفاته . كم رجوت أن أترجم من دواوين إقبال ولكن ما طمعت قط فيما يسره الله لى من ترجمة ديوانين فى أقل من ثمانية أشهر ، ونشرهما فى سنة واحدة .

والحمد لله على توفيقه . وهو المسئول أن يوفق ويلهم ويسدد . وهو حسبى ونعم الوكيل .

مدينة كراجى

١٥ آذار سنة ١٣٧١ هـ

١٩ جمادى الثانية سنة ١٩٥٢ م

---

(١) وضعت كلمة مرقم لما يسمى الآلة الكاتبة فاستعملت كلمة راقم لمن يسمى كاتباً على الآلة الكاتبة ، ورقم بدل كتب على الآلة الكاتبة . وقد استعملت هذه الكلمات فى جامعة فؤاد الأول فلعل استعمالها يشيع .

مدخل

« ضرب الكليم »

ديوان يشتمل على آراء ونظرات فى الناس جماعات ووحدانا وفى الدين والتربية والفنون والأدب والسياسة . فهو أدخل فى الفكر والفلسفة ولكن فيه من العاطفة والخيال ما يدخله فى الشعر .

وكل حقيقة فى هذا الكون أهل أن تدخل فى الشعر ، إن صبغتها عاطفة الإنسان ، أو صوّرها خياله . وموضوعات الشعر تتوالى من محيط دائرته إلى مركزها ؛ بعضها عند المحيط يدخل فى الشعر قليلا ، ويجاور ما هو خارج الدائرة . وبعضها أدخل فى الدائرة ، وهكذا تتوالى إلى مركز الدائرة ، على قدر نصيب الموضوعات من العاطفة والخيال .

فالكلام فى ضرب الكليم شعر يقارب الحقائق المجردة أحياناً ، ويمعن فى الشعر أحياناً ولكنه فى جملته أقرب إلى المحيط منه إلى المركز .

ومن أجل هذا لقيت فى ترجمته عناء أكثر مما لقيت فى ترجمة بيام مشرق ، إذ حرصت على ألاتذهب الترجمة بقَسَمات الشعر فيه ، وألا ينصل بها الخضاب الشعرى القليل ، وألا يذبل هذا الزهر الصغير بالانتقال من روضة إلى روضة ، وألا تضيع الدقائق الشعرية بين لغتين مختلفتين وأسلوبين من البيان متباعدين .

والكتاب فى جملته ضرب يفجر المـاء من الحجر لاموسيقى وغناء كما قال إقبال :

كفاح شديد وضرب سديد

فلا تبغ فى الحرب عزف الوتر

ومن أجل هذا سماه ضرب الكليم ، رمزاً إلى قصة موسى حين ضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً .

فلعل القارئ يقدر حقائقه فى معرض من الشعر شفاف أكثر مما يلتمس فيه خيال الشعر وزينته وبهجته . ولعله كذلك يقدر عناء المنشئ والمترجم فى عرض هذه الحقائق والإبانة عنها فى أسلوب من الشعر الرصين .

فصول الديوان

قسم الشاعر ديوان ضرب الكليم على ستة فصول . وقدم قبلها قطعتين وقصيدة : القطعة الأولى أبيات قدم بها الديوان إلى أمير بهوبال حميد الله خان، والثانية يخاطب فيها القراء. والقصيدة سماها تمهيدا

وهذه فصول الديوان :

١ ــ الاسلام والمسلمون، (وهو أطول الفصول)

٢ ــ التعليم والتربية .

٣ ــ المـــــرأة .

٤ ــ آداب الفنون الجميلة ، (وهو ثانى الفصول طولا)

٥ — سياسيات المشرق والمغرب .

٦ — أفكار محراب كل الافغانى.

وهذه الفصول مؤلفة من قطع صغيرة بين بيتين وعشرة لا تتجاوز العشرة إلا قليلا .

والفصل الأخير منظومة واحدة مقسمة عشرين قسما تختلف أقسامها أوزاناً وقوافى ولكن الشاعر جعلها منظومة واحدة وربط بين أقسامها بأعداد متوالية .

والقطع فى الفصول كلها ، إن عددنا أقسام الفصل الأخير ، مائتان واثنتان .

وفى المقدمة أربع قطع .

فلسفة إقبال

لابد من كلمة موجزة فى فلسفة إقبال تعين القارئ على إدراك مرامى الشاعر.

أساس فلسفة إقبال ما سماه « خودى » (الذات أو الذاتية) .

وقد بين مذهبه هذا فى كثير من شعره وخص به منظومة سماها أسرار خودى .

وخلاصة هذه الفلسفة ، وما بنى عليها ، وما يتصل بها من آراء:

(ا) أن الذاتية جوهر الكون وأساس نظامه، وسر الحياة فيه .

(ب) وأن الذاتية هذه تحيا من تخليق المقاصد ، وتوليد الآمال .

كما يقول إقبال : « نحن أحياء بتخليق المقاصد ونحن منيرون من شعاع الأمل » .

(ح) وأن الذات تقوى بعشق ما تؤمل ، وسعيها إليه غير متوانية وإقدامها عليه غير هيابة واقتحامها كل عقبة فى سبيله كما قال : « وهى بالمحبة أقوى ، وأحيا وأضوأ » .

(د) والجهاد الدائم ، والكفاح المتصل تقوى به الحياة وتزداد وتنير. والأحجام ، والتردد والسكون إلى الدعة والخضوع تضعف الحياة وتطفئها .

(ه) وعلى الانسان أن يستخرج كل ما فى فطرته من مواهب ، وأن يعتمد على نفسه ، ويظهر ذاته فى قوله وفعله ، ويحذر التقليد والاعتماد على غيره ، وطلب ماعند الناس والغفلة عما فى نفسه من كنوز .

(و) بهذا كله تقوى الذات ، وقوة الذات هى مقصد هذه الحياة . والشاعر معجب بالقوة فى كل شىء ، القوة الحسية ، والقوة المعنوية . وهو بهذا يعجب بالفيلسوف الألمانى نيتشه ويذكره كثيراً ولكنه يأخذ عليه أنه عرف العقل لا القلب ، والجسم لا الروح ، والعلم لاالعشق ويقول عنه لم يكن أهلا لنكتة التوحيد ، وأنه آمن عقله وكفر قلبه ، وأنه بنى موثنا على أسس مسجد .

بل القوة عند إقبال من عناصر الجمال ، فان الجمال لا يكون بغير جلال .

يقول فى القطعة التى عنوانها : الجلال والجمال :

عندى جمال فى بهاء أن تُرَى

فى سجدة للقوة الأفلاكُ

ولنغمةٌ من دون نار نفخة

ما الحسن إلا بالجلال يُحاكُ

بل يقول فى هذه القطعة إنه لا يحب أن يعذب بنار غير قوية :

لا أرتضى نار الجزاء ولم تكن

وهاجة ولهيبها درّاكُ

(ز) والحسن والقبح أو الخير والشر من علو الذات وانحطاطها وقوتها وضعفها :

عالَم الذات به علو وسفل

وبه معرك قُبح وجمالِ

فى اعتلاء الذات ما يبدو جميل

وقبيحٌ ما بدا فى الاِستفال

(ح) والذات المفردة القوية الناضجة تنسلك فى الجماعة ، ولاتفنى فيها . وقد بين إقبال فى ديوانه أسرار خودى كيف يلتئم الواحد القوى فى جماعته وكيف يسعد بهذا الالتئام ويبقى ولا يفنى . ومن إشاراته فى هذا :

يا من فى القافلة سِرْ رفيقاً وكن وحيداً .

ويقول فى ضرب كليم فى القطعة التى عنوانها الرجل العظيم :

هو فى المجمع خال ومن الحشد طليق

مثل شمع الحفل، فى الحفل وحيد ورفيق

(ط) والانسان أعظم الكائنات ، وكل شيء فى العالم مسخّر له كما فى القرآن الكريم :

« ولقد كرّمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضّلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » .

« وسخّر لكم ما فى السمٰوات وما فى الأرض جميعاً منه » .

« وسخّر لكم الأنهار وسخّر لكم الشمس والقمر دائبين وسخّر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه . وإن تعدّوا نعمة الله لاتحصوها . »

(ى) والانسان حرّ غير مجبر ، ومخيّر غير مسيّر . عزمه دليل على القضاء أو مشير عليه . والمؤمن الحر هو مقياس الصلاح والفساد والبقاء والفناء فى هذه الدنيا بل فى الدنيا والآخرة :

فيه عزم على القضاء مُشير
وهو فى العالَمين كالميزان

النبات والجماد فى قهر الطبيعة ولكن المؤمن الحر لا يقيده إلا إطاعته أحكام ربه :

إن النبات وإن الجامدات لها
من القضاء قيود ذات إحكام
والمؤمن الحر لا شيء يقيّده
لكنْ لخالقه فى قَيد أحكام

يا — الحضارة الحديثة

ويروى إقبال أن الحضارة الأوربية مادية ، لاروح لها ولا قلب. ويشتدّ فى نقدها ، ويذكر فلاسفتها فيقبل من آرائهم قليلا ويردّ كثيراً ويرى أن فى الاسلام وحضارته سعادة البشرة والتأليف بينهم ، وجمعهم على شرعة الحق أخوةً متحابّين متعاونين .

يب — فلسفته فى هذا الديوان

تتجلى فلسفة إقبال ، فى الذات وما يتصل بها ونظره إلى الحضارتين الاسلامية والأوربية وسائر آرائه ، فى كل فصول هذا الديوان ، حتى الأدب والفنون الجميلة .

الشعر فيه من الحياة رسالة
أبدّية لا تقبل التبديلا
إن كان من جبريل فيه نغمة
أو كان فيه صُور إسرافيلا
— صمت طير الصبح أولى من غناء
إن سرى فى الرّوض باللحن ذبول
والغناء إن أدى إلى ضعف أو خَوَر فهو حرام :
إن سرت فى اللحون دعوة موت
حرُم النايُ عندنا والربابُ

والمصور ينبغى أن يصور الحياة وأن يطبع ذاته على الطبيعة لا أن يحاكيها :

مقصـــــد الفنّ فى الحيـــاة لهيب
أبـــــدىّ فمــــا وَميضُ الشرار ؟

يا خبيراً بفنـــــه فيـــــه تمت
صنعةُ العصر والعصـــور الخـــوالى

كم ترى من طبيعة وتـــريهـــــا ؛
أرِنـــا الذات فوق هـــذى المجالى

تفسير اصطلاحات فى الديوان

« الفقـــــر »

يشيد إقبال بالفقر فى مواضع كثيرة من شعره فى هذا الديوان وفى غيره ، ويعدّه مفتاح كل خير والوسيلة إلى كل سؤدد ، والمقتحم كل عقبة .

ومن الأبيات التى ذكر فيها الفقر فى هذا الديوان :

فى القطعة : « على ذكر الاذن يحمل السيف » :

أيها المسلم تَـــــدرى اليوم ما
قيمة الفـــــولاذ والعَـضْبِ الذكَـر

هـــــو مِصراعٌ من البيت الذى
مضمـــــرٌ فيه من التوحيد سـرّ

وأرى مصراعه الثاني في

سيف فقر تحتويه كفُّ حر

وقوله ، في القطعة « الفقر والملكية » :

الفقر يمضي بلا سلاح

في حومة الحرب كالرجوم

وقوله ، في قطعة « السلطان » :

تعلّم فألف مقام وشأن

لفقر بدا فيه روح القُرآن

وقوله ، في قطعة « الامامة » :

يُمِرّ عليك من فقر مِسَنّاً

فيطبع منك سيفاً للمنايا

وقوله ، في القطعة « نكتة التوحيد » :

أيُّ ملك مقام فقر ، ولكن

تؤثر الذل مذعناً . ما احتيالي

وقوله ، في القطعة التي أولها : متاعك في الحياة فنون علم :

وما إن ذل قوم قد أعدّوا

حماس العشق والفقرِ الغيور

ويتبين من التأمل في هذه الأبيات أن الفقر في لغة إقبال ليس عدم المال أو قلته ، ولا هو حاجة إلى ما يعيش به الانسان ويعتز به من متاع الدنيا . فماذا يعني إقبال حين يذكر الفقر ويشيد به ويبالغ في إكباره ؟ الذي أدركته من كلام الشاعر أن الفقر الذي يعنيه هو

خلاص النفس من قيد التملك أو الطمع ، ومضيها عاملة مقـــدمة لا يطغيها وجدان ولا يذلها حرمان . وربما يملك الفقير قناطير من الذهب وربما يكون ملكاً مسلَّطاً لا ُيعجز سلطانه مال أومتاع .

وليس هذا المعنى بعيداً عما فسَّر به بعض الصوفية الفقر .

فى رسالة القشيرى :

سئل يحيي بن معاذ عن الفقر ، فقال :

« حقيقته ألا يستغنى إلا بالله » .

وقال الشبلى :

« أدنى علامات الفقر أن لو كانت الدنيا بأسرها لأحد فأنفقها فى يوم ثم خطر له أن لو أمسك منها قوت يوم ما صَدَق فى فقره » .

وفى الرسالة أيضاً :

« وقيل صحة الفقر ألا يستغنى الفقير فى فقره بشىء إلا بمن إليه فقره » .

وفى كتاب عوارف المعارف للسهروردى :

« وقال الكتانى : إذا صح الافتقار إلى الله تعالى صح الغنى بالله تعالى . لأنهما حالان لا يتم أحدهما إلا بالآخر » .

فترى أن الفقر فى هذا الكلام ليس عدم الملك وفوات المـال ؛ ولكن ألا يرتبط الانسان بما أدرك أو بما فات . أعنى ألا تكون الدنيا فى قلبه وإن كانت فى يده .

« قلندر »

يعنى به إقبال الانسان الذى لايصل نفسه بمال ولا أهل ولادار.

وهو فى الأصل اسم رجل ذهب هذا المذهب وأحدث طريقة كان سالكوها يديمون السفر لا يلبثون فى مكان ، ولا يقيدهم ملك ولا أهل ولا وطن . ويحلقون رؤوسهم ولحاهم .

وسمى سالك هذه الطريقة قلندرا باسم صاحب الطريقة .

وقد رأيت أن أبقى اللفظ فى الترجمة لأنه علم فى الأصل . وجعلته أحياناً وصفاً وأحياناً نسبت إليه فقلت : القلندر والقلندرىّ .

« الجنون »

يكرر الشاعر ذكر الجنون فى هذا الديوان ، ففى القطعة التى أولها :

إلى عصبات العـــرب ما أنا منتمٍ
ولا أنا هنـــدى ولا أنا أعجمى

يقـــول :

فلست أرى فى بيدِك اليوم جِنّـــة
تَشبّ بهـــذا العقل نار التقـــدم

وفى القطعة التى أولهـــا :

متاعك فى الحياة فنون علم :

يقـــول :

ومزّقتُ الجيوبَ وأنت خــــال
جنونى – لا ألومك – فى قُصـــور

وفى القطعة ، « يا شيخ الحرم » :

فى جنـــونى لك أسرار بـــدت

فاجْـزنى يا شيخُ عن هذا اللمم

وفى القطعة التى عنوانها « المدرسة » :

أبعَـد الدرس عن حمـــاك جنونا

قال للعقل : لا تَلُـذْ بنقـــاش

وفى القطعة « فلسفة » :

إن فى حلقة المجانين عقـــلا

فى شرار يـــرى لهيباً مُضيّـاً

وظاهر أن إقبالا يعنى بهذا الجنون الحماسَ والاقدامَ وأداء الواجب دون تردد ، وفى غير حساب للمشقة والربح والخسارة ، فهو قريب من العشق الذى يذكر فى مقابلة العقل .

وكأنه يقول إن هذا الاقدام يَعُـدُّه الناس جنوناً ، ونحن نحب هذا الجنون .

وللأستاذ أحمد برويز كلمة جامعة فى فلسفة إقبال وآرائه يجدها القارئ بعد هذه المقدمة .

وحسب القارئ أن يظفر بمقال برويز عن إقبال .

فحسبى الكلمات التى قدمتها .

عبد الوهاب عزام

ضرب الكليم

كلمة الأستاذ أحمد برويز

(ترجمت من الأردوية)

هذا الكتاب الذى تقدم إلى القراء ترجمته ، سماه العلامة إقبال « ضرب كليم » ووصفه بأنه (إيذان العصر الحاضر بالحرب) وأرى أن هذا الوصف لا يخص ضرب الكليم بل يشمل جانباً كبيراً من رسالة إقبال العظيمة . فنحن إذا قسمنا رسالة إقبال انقسمت إلى قسمين خطيرين :

الأول : ثورة على « الإسلام غير المنزل من الله » وضعه الأعاجم وخيلوا إلى الناس أنه عين الإسلام ، وفرضوه على الأمة التى بُعثت لتمحو ما لا يلائم الدعوة القرآنية . وكان هذا الكيد للإسلام انتقاماً من الهزيمة التى أصابت الأعاجم بسيوف المسلمين . فقد علموا أن سر القوة والسطوة فى هذه الأمة المجاهدة ، سنن القرآن وعقائده التى تبعث الحياة فى النفوس . فكادوا لها ليبعدوها من القرآن ويربكوها فى حبالة « الإسلام غير القرآنى » . وقد أحكموا كيدهم حتى حسب المسلم الغر هذا السراب ماء . لقد أدخلوا فى الإسلام فلسفة اليونان المخدرة ، وخضوع المجوس للسادة ، وشريعة اليهود المعنيّة بالصور والأشكال . كذلكم عمدوا إلى هذه الأمة التى كانت شعلة من العمل والإقدام فجعلوها بالاستسلام واليأس كومة من رماد .

والقسم الأول من رسالة إقبال نذير الموت لهذا الإسلام غير المنزل ، وبشير الحياة للإسلام القرآنى .

* * *

والقسم الثانى من رسالة إقبال احتجاج دائم على هذه الفتن التى تموج بها الحضارة الغربية والتى يذهب موجها بشباب الأمة الإسلامية كما يذهب السيل بالغثاء . وضرب الكليم هو إيذان هذه الحضارة بالحرب .

ما حضارة العصر الحاضر ؟ ولماذا يشتد إقبال فى معاداتها ؟

لا نعرف جواب هذا السؤال حتى نعلم ما الحضارة الإسلامية .

ان من يتدبر القرآن يتجلى له أن الإسلام نظام حياة يسمى ديناً . فقد بيّن القرآن للحياة الإنسانية مقاصد ، وحدّ حدوداً . وجعل للإنسان الاختيار والاجتهاد غير متعد هذه الحدود وهذه المقاصد والحدود لا تتبدل ، فهى حقائق أبدية ، وقيم للحياة خالدة . يتبين من القرآن أن للحياة مظاهر مختلفة متغيرة ، ولكن لها ينبوعاً واحداً لا يتغير . وهذا الينبوع أصل هذه الحقائق التى ذكرت آنفاً .

والإيمان بوحدة ينبوع الحياة ، ينبوع الحقائق الأبدية ، يؤدى حتما إلى هذه النتائج :

(ا) كل إنسان مودَع فى فطرته ممكنات الحياة ، وغاية الحياة نمو هذه الممكنات وتجليها . وهذه الجواهر الفطرية الخفية إذا نضجت وتلألأت تجلت ذات الإنسان . وحفظ هذه الذات وخلودها هما غاية سعى الإنسان وجهده .

(ب) والناس آحاد فى أخوة شاملة عامة ، لا تحدها الأوطان والأقوام واللغات .

(ج) ثم فلاح النوع الإنسانى فى أن يمضى فى الحياة على شريعة واحدة ، يُتلقى بالوحى . وهو اليوم محفوظ بين دفتى القرآن تحت هذه السماء .

* * *

فى الإسلام نظام للمعايش محكم ، قائم على هذه القواعد المحكمة . يمضى الإنسان به على سنن التقدم والترقى حتى يبلغ فى مراحل الكمال سدرة المنتهى .

وإليك خصائص هذا النظام :

(ا) فى هذا النظام يستطيع كل فرد فى الجماعة أن يمثّل فى نفسه الصفات الإلهية التى يسميها القرآن « الأسماء الحسنى » . وهى ينبوع القيم الدائمة فى الكائنات .

(ب) وتستحكم نفس الإنسان فيستطيع أن يوازن بين هذه الصفات كلها ، فقد وصفت الأسماء بأنها الحسنى . ولا يكون الحسن بغير اعتدال وتناسب .

(ج) وتتجلى فى الإنسان بصيرة يصح بها حكمه ، ويستقيم رأيه فيعلم أى هذه الصفات الإلهية تقابل أى الحادثات الخارجية التى تنتابه .

(د) ثم يبدو فى الجماعة التى تؤلفها أفراد من هذا القبيل ،

قدرة على تسخير عالم الطبيعة . وصلاحية للانتفاع بهذا التسخير في فلاح الإنسان وسعادته .

(هـ) وبالإيمان المحكم بوحدة الخالق ، ووحدة الكائنات ، ووحدة الأمة وائتلافها ، تتوافق الأضداد الظاهرة بين الإنسان والكائنات ، وبين الإنسان والإنسان ، وبين الإنسان ونفسه ، فيزول التنافر والاضطراب عن الجماعة الإنسانية .

(و) ثم يرى كل واحد فى هذه الجماعة نفسه مظهراً للصفة الإلهية « رب العالمين » ، فيقوم على الإنسانية بالحق والعدل غير راج أجراً ولا عوضاً . فتيسّر لوحدان الجماعة ضروريات الحياة ، وتنمو فيهم القوى الفطرية ، وتذلل لهم الوسائل والأسباب أبداً .

* * *

هذه خلاصة المدنية القرآنية فى كلمات قليلة . وعلى عكسها المدنية الحاضرة . فهى تناقض هذه الأصول كل المناقضة .

هذه المدنية قائمة على هذه الفلسفة : أن الحياة تنشأ من اجتماع العناصر المادية اتفاقاً ، وتفنى بتفرق هذه العناصر . والدنيا هى دنيا هذه العناصر المادية التى يتغير فيها كل شىء . فليس فيها قيم دائمة . وليس فيها قانون لمكافأة الأعمال . والخير ما يجلب لواحد أو جماعة نفعاً خاصاً (ولو كان فى هذا هلاك آحاد أو جماعات أخرى) . والشر ما يضر واحداً أو جماعة . وكل أمل هؤلاء الوحدان والجماعات فى الحياة أن تجر إلى أنفسها منفعة . وعمل العقل والعلم أن يهيىء الأسباب والوسائل أو الحيل والمكايد لتحصيل هذه المنفعة .

ونتيجة هذه الفلسفة (مدنية العصر الحاضر) فى الأفراد ، أن فى كل ستة من تلك الأفراد فرداً يختل عقله فيرسل إلى مستشفى المجانين ، كذلك دل إحصاء أهل الغرب أنفسهم . ونتيجة هذه الفلسفة فى الجماعات أن أمم العالم فى شغل بالقتل وسفك الدماء والتدمير ، أو بالاستعداد للقتل والسفك والتدمير .

* * *

أنعم إقبال النظر فى فلسفة الحياة ، ونظريات السياسة والعمران، عند الأمم الغربية ، فتجلت له هذه الحقيقة : أن هذه الفلسفة، وهذا المنهاج فى الحياة يجعلان هذه الدنيا جهنم لا محالة .

وإلى هذا كشفت له السنن القرآنية حقائق الحياة حتى رأى البروق الكامنة فى السحب ، والعواصف المضمرة فى الرياح .

هذا النظر حفز إقبالا إلى أن يحذر الغرب ، فيقول للغربيين سنة ١٩٠٥ م : « ستقتل حضارتكم نفسها بخنجرها — لايثبت العش على غصن رطيب ضعيف مضطرب » .

ولم يأل إقبال جهداً ، منذ ذلك الحين إلى آخر لمحات حياته ، فى أن يحذر الناس عامة والأمم الإسلامية خاصة من هذه الحضارة الشيطانية ، ويخوفهم عواقبها .

* * *

وهذه طائفة من النذر ، اسمها « ضرب كليم » يكتبها إقبال بعد أن يحطم كل أصنام العصر الحاضر ، ولكنه لايكتفى بأن يبطل

سحر الفرعونية والهامانية والقارونية[1] بل يهدى هذه الأمة فى نور القرآن إلى الأودية المباركة من سينا وفاران ، حيث تفيض البركة من ينابيع الأرض ، وينزل الخير من السماء .

هذا ما يتعلق بـ « ضرب كليم » . ويجدر بنا الآن أن نبرز نقطة من الأهمية بمكان فى دراسة إقبال بوجه عام ، وهى أن شعر إقبال حافل بكلمات معينة ، عربية وفارسية ، لم يقصد إلى مدلولها اللغوى ، إنما استخدمها كاصطلاحات من وضعه هو . إذن لايتأتى لأحد أن يتبين ما يرمى إليه الشاعر ما لم يكن ملماً بحدود تلك المصطلحات الخاصة ، مثل « علم وعشق ، ذكر وفكر ، خبر ونظر ، سوز وساز ، أو درويش وقلندر ومرَدِحُر » وأخرى غيرها . ومع أن كل واحدة من تلك الاصطلاحات لها أهميتها إلا أن من بينها اصطلاحاً هو بمثابة المحور لفكر إقبال ، المحور الذى حوله يدور شعره كله ، ألا وهو « خودى = الذاتية » . لقد كان هذا اللفظ يستعمل عندنا (بالأردوية) من قبـل بمعنى الكبرياء والغرور (الأنانية) لكن إقبال أفاض عليه معنى خاصاً مغايراً للمعنى القديم الذى لم يلبث أن اختفى فى أيامنا هذه أمام مزاحمه الجديد .

فماذا يعنى إقبال بـ « خودى » ؟

ان الإجابة على هذا السؤال تأبى إلا البسط والتفصيل ، لأن فلسفة إقبال هى فلسفة « خودى » سواء بسواء ، بحيث لا يمكن الاحاطة بمغزى هذا الاصطلاح بدون استعراض فلسفته برمتها .

(١) يعنى صفات فرعون وهامان وقارون.

وليس هذا مقام التفصيل والإطناب ، إلا أنه نظراً إلى تكرار وجود هذا الاصطلاح فى « ضرب كليم » يتحتم علينا أن نعرّفه تعريفاً خاطفاً بكلمة موجزة قدر الإمكان :

هل شخصية الإنسان ووجوده الفردى ، أو بعبارة أخرى « أنا » حقيقة مستقلة أم هى من نسج الخيال فقط ؟ هذا هو السؤال الذى قلما أغفل مفكرو أية أمة من أمم العالم الإجابةَ عنه . فذهب أفلاطون ومن ورائه حكماء إيران والهند ، إلى أن الكون لا يتمتع إلا بالوجود الكلى وأن ذات الإنسان (شخصيته أو « أنا ») وهم وخدعة لا غير . ثم ان هذه الخدعة إنما تستمد القوة من العمل الذى هو بدوره ينشأ من الرغبة . فالطريق إلى التخلص من هذه الخدعة هو أن يتدرج الإنسان من ترك الرغبة إلى ترك العمل ، لكى يتلاشى حباب ذات الإنسان فى بحر الوجود الكلى . وفناء الذات هذا هو النجاة والغاية من الحياة . فهذه هى فلسفة الحياة التى ظهرت وانتشرت بيننا باسم نظرية وحدة الوجود والتى حوّلت المسلمين من أمة دائبة فى العمل إلى جماد لا حراك به .

وقد عُنى إقبال بتفنيد فلسفة الحياة هذه ، ومعارضتها بضدها أعنى فلسفة « خودى» . وتتلخص هذه الفلسفة الأخيرة فى أن الوجود ليس كلياً يشمل الكون من حيث المجموع ، بل هو فردى يخص جميع الموجودات كلا على حدة ، حتى أن الله أيضاً فرد ، وإن كان متميزاً عن سائر الكون فى طبيعة وجوده الفردى الخاص . فـ« خودى » عبارة عن أسمى صورة للحياة الفردية التى بها تتشكل

شخصية الإنسان ووجوده المستقل . وعلى هذا فالغاية من الحياة الإنسانية هي إثبات « خودى » لا سلب الذات . ويعتقد إقبال أن الإنسان كلما تشبه بذلك الفرد الكامل العزيز الوجود (الذى يطلق عليه « أنا » المطلق أو الله) أصبح هو نفسه منفرداً عزيز الوجود ، وذلك بما يسمى بتقوية « خودى » وإحكامها . و « التشبه بالله » إنما يعنى استمرار الإنسان فى التحلى بصفات الله إلى أن يتم بذلك جذب « أنا المطلق » فى نفسه (نفس الإنسان) . والمحك الذى يكشف عن قوة « خودى » وضعفها هو مدى تغلب الإنسان على الموانع التى تعترض سبيله فى الحياة . ولا يخفى أن أعظم تلك الموانع هى المادة ، ولكن لا يفهم من هذا أن المادة شر يستوجب الابتعاد والنفور منه ، فانها ليست شراً ، إنما هى وسيلة لإيقاظ الهمم وإبراز قوى الإنسان من مكامنها .

واحتناك الموانع والعوائق وتغلب الإنسان عليها يصل بـ «خودى» إلى أن تستطيع الصمود حتى لصدمة الموت ــ الأمر الذى ييسر لها الحصول على الحياة الخالدة . فكل عمل يؤدى إلى تقوية «خودى» خير ، كما أن كل عمل يؤدى إلى إضعافها شر .

ويبين إقبال المراحل المختلفة لارتقاء « خودى » فيقول إن المرحلة الأولى هى (خلق المقاصد) أو (توليد الرغبات) ، فان الرغبات والأمانى هى عين الحياة وأصل القوة من حيث أنها تحرك وتدفع إلى العمل . والمرحلة الثانية لخلق المقاصد هى مرحلة الجهاد المتواصل لتحقيق تلك المقاصد ، والحماس للحصول على المقاصد والسبق

إلى الغايات هو ما يسمى بـ « العشق » فى عرف إقبال . ثم أن هناك ثلاثة شروط للنجاح فى هذا الجهد :أولها الطاعة، أعنى الانقياد التام لأوامر الله ، وذلك يستلزم إنشاء مجتمع على النظام الذى جاء به القرآن . وينتج من الطاعة ضبطُ النفس الذى هو الشرط الثانى للنجاح. وليس المراد بضبط النفس القضاء أو الضغط على الشهوات ، بل مجرد « كظمها » أى تغيير مجراها وتحويل وجهتها بحيث يتم التوازن بينها ، ذلك التوازن الذى يتجلى بأكمل وجه فى الذات الآلهية الجامعة لصفات متضادة متعادلة للغاية .

وإذا تم تطهير الفكر والعمل وتهذيب النفس على النحو الذى تقدم ، وصل الإنسان إلى المقام الذى يسميه إقبال « نيابة الله » . وذلك هو الشرط الثالث . وإنما يعنى إقبال بـ « نيابة الله » القوة التنفيذية التى تتولى إجراء حدود الله (أحكام القرآن) فى العالم . (ولا تعنى نيابة الله الحلول محل الله لأن ذلك يستلزم خلو المحل وانعدام شاغله أولا) .

هذا المقام هو « مقام المؤمن » والمقام الذى يؤكد إقبال أنه يمثل آخر مدى قوة « خودى » واستحكامه . إذا انتهى الإنسان إلى هذا المقام غلب هو على الدنيا ولم تغلب الدنيا عليه ــ الحال التى تسمى فى عرف إقبال « الفقر (حال الدرويش أو القلندر) » وهى عبارة عن تسخير جميع الكون ثم الاستغناء عنه بحيث يكون الإنسان مظهراً لتلك الصفة من صفات الله التى ذكرها بقوله « الصمد » و « غنى عن العالمين » . والجماعة التى تنتظم أفراداً هذه حالهم هى

الأمة المسلمة . وأقصى ما تهدف إليه رسالة إقبال هو البعث الجديد لهذه الأمة التي قيل عنها :

ميان امتان والا مقام است   كه آن امت دوكيتي را امام است
نياسا يد زكار آفرينش   كه خواب وخستكى بر روى حرام است

(انها تعلو فوق الأمم لأنها أمة نيطت بها الإمامة فى الدنيا والآخرة فهى لا تنى عن مواصلة أمور الخلق لأن النوم والتعب محرمان عليها) إشارة إلى قوله تعالى « لاتأخذه سنة ولانوم » ، « وما مسنا من لغوب»

وقيل عنها أيضاً :

«باغان عندليبي خوش صفيرى   براغان جره بازى زودكيرى
أمـــير أو بسلطانى فقـــيرى   فقـــير أو به درويش أميرى

(انها فى البساتين عندليب حسن التغريد وفى الصحارى باز خفيف سريع الانقضاض ، الأمير فيها فقير على الرغم من كونه سلطاناً كما أن الفقير فيها أمير على الرغم من كونه درويشاً) .

« لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » .

* * *

ومن جد رسالة إقبال أن ظفرت بالصديق المبجل صاحب السعادة الدكتور عبد الوهاب عزام ، وفى يده قلم يشق الصخر ويجرى نهراً من اللبن (١). فأخرجها من ضيق الأردوية إلى بحر العربية ، ونقلها

(١) اشارة الى قصة فرهاد وشيرين . فقد شـق فرهاد طريقا فى الجبل وأجرى فيه اللبن من المراعى كما طلب الملك برويز ليظفر بشيرين .

من ركود الساحل إلى أمواج العباب ، تنشر شراعها وتمضى سبيلها .

ومن جدّ الناطقين بالعربية من الأمة الإسلامية ، أن يعرفوا رسالة الحياة ، هذه الرسالة التى كانت بعيدة عنهم بألفاظها على قربها منهم بمعناها .

والله يقدُر لرسالة البعث هذه أن تقع فى ديار العرب بذراً صالحاً ينبت الشجرة الباسقة التى نبتت هناك من قبل ، والتى قيل فى سموّها وبسوقها « أصلها ثابت وفرعها فى السماء » وقيل فى سعتها وامتدادها « لا شرقية ولا غربية » . وإنما ينبت هذا الشجر المبارك ويثمر فى أرض القرآن .

تلك رسالة إقبال ، مفهومها ومنطوقها :

مسلماً إن ترد حياة فهيا ما بغير القرن توتى الحياة (١)

غلام أحمد برويز
صاحب معارف القرآن

كراتشى (باكستان)

تفضل بترجمة الجزء الأكبر من كلمة الأستاذ برويز ، حضرة الأستاذ الدكتور محمد يوسف المدرس بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول .

(١) گر تو می خواهی مسلمان زیستن نیست ممکن جز بقرآن زیستن

(غ)